

عقيدة الإمام مالك وموقفه من علم الكلام

أنس إبراهيم محمد عبد الباقي

جامعة الامام المهدي- كلية الاداب- قسم الدراسات الاسلامية

مستخلص

يهدف هذا البحث إلى بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، من خلال الحديث عن عقيدة إمام من أئمة الهدى ، وأحد مؤسسي المذاهب الفقهية ، ألا وهو الإمام مالك - رحمه الله - إمام دار الهجرة . يتناول البحث آراء الإمام مالك في بعض مسائل العقيدة مثل : تعريف الإيمان وأدلة زيادته ونقصانه ، ومسألة الصفات الإلهية ، لاسيما صفة الاستواء على العرش ، ومسألة خلق القرآن وغيرها. ثم يوضح البحث موقف الإمام مالك رحمه الله من علم الكلام، حيث نهى عن الخوض فيه كغيره من العلماء ، ودمّ هذا العلم وشنّع على من خاض غمار هذا العلم. ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن الإمام مالك على الرغم من شهرته بالفقه إلا أن له آراء في أصول الدين والعقيدة.

Abstract

This research aims to release doctrine of the Sunnis and the community, by alking about the doctrine of the imam of the imams of a sacrificial animal, and one of the founders of the schools of Islamic jurisprudence, namely Imam Malik - God have mercy on him - the imam of Dar al-Hijrah. This paper deals with the views of Imam Malik in some faith issues such as: the definition of faith and evidence of increase and decreasing, and the issue of the divine qualities, especially prescription equator on the throne, and the issue of the creation of the Koran and others. Then search shows the position of Imam Malik - God's mercy - of Theology, where he is forbidden to go into it, like other scientists, edema of this science and Hna on who played the captain's flag. It is the findings of the research that Imam Malik in spite of his fame jurisprudence, however, his views on the origins of religion and belief.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي بدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، والصلاة والسلام علي سيدنا محمد صاحب الشرع المتين ، وعلي الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين . أما بعد فإن الإمام مالك - رحمه الله - إمام دار الهجرة ، يُعد من أهم الشخصيات في تاريخ الفكر الإسلامي ، فهو أحد الأئمة الأعلام ، وإليه يُنسب المذهب المالكي ، الذي انتشر في العالم الإسلامي عموماً وفي شمال أفريقيا خصوصاً . ولشهرته هذا الإمام وعلو كعبه في علوم الإسلام ؛ تأول علماء عصره الحديث الذي أخرجه الترمذى ، وابن حبان ، والحاكم ، وأحمد ، والنسائي ، وعبد الرزاق الصنعاني بألفاظ متقاربة (يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل ، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة) . واللفظ للترمذى ، وإنه الإمام مالك عالم المدينة ، الذي ضُربت إليه أكباد الإبل ، وقصده طلاب العلم من كل حذب وصوب ، ينهلون من معينه الصافي ، فأثني عليه العلماء ثناءً عاطراً ، فقد قال الإمام النووي الشافعي في الإمام مالك : إمام دار الهجرة ، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة ، وهو من تابعي التابعين . ولقد اشتهر الإمام مالك بالعلم والفقه والحديث والفتيا ، حتى سار المثل : (لا يُفتي ومالك بالمدينة) . ولقد رمت من خلال الكتابة في هذا الموضوع تحقيق جملة من الأهداف منها : إبراز دور الإمام مالك وجهوده في خدمة الشريعة في جانب العقيدة وأصول الدين ، إلقاء الضوء علي دور الإمام مالك في تدريس وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة ، ودفاعه عنها ، وردة علي المبتدعة والمنحرفين ، توضيح موقف الإمام مالك من علم الكلام ، الذي ابتدأه المعتزلة ومن نسج علي منوالهم من الفرق الضالة .

مولد الإمام مالك والحياة الفكرية في عصره

وُلد الإمام مالك علي أرجح الروايات عام 93هـ ، وعمرٌ دهرًا طويلاً - عليه رحمة الله - إذ بلغ عمره حوالي ستاً وثمانين سنة ، وكانت وفاته عام 179هـ¹ . وعلي هذا فإنه عاش فترة من عمره في العصر الأموي حوالي تسعة وثلاثين عاماً ، وعاش فترة من عمره أيضاً في العصر العباسي حوالي سبعة وأربعين عاماً . وفي هذين العصرين اللذين أدركهما الإمام

1 الفهرست ، أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ص 339

مالك ، قد كثر الكلام حول العقائد ، فكان الخوارج ولهم آراء في فهم الدين، وفي فهم العقيدة، وكان الشيعة بفرقهم المختلفة من كيسانية وإمامية وغيرهما ، وكان المعتزلة ولهم مناهج في تفسير النصوص الخاصة بالعقيدة ليست لغيرهم وكانت هناك نحلاً وُفِرْقٌ آخري¹ . ولقد ظهرت معظم هذه الفرق في العصر الأموي، ولقد كان هذا العصر مُسْ رِحاً لأفكار ومذاهب تُدس بين المسلمين في الخفاء فتفسد عقيدتهم، وتلبس عليهم الحق السائغ القويم بأمر يصعب علي العقل فهمها واستيعابها ، أو لا يعرف العقل البشري حقيقتها، مثل البحث في القضاء والقدر وإرادة الإنسان وغيرها ، وبجانب هذه المسائل والمباحث فهناك حركة فكرية آخري ، ابتدأت في العصر الأموي ، ونمت وأنت أكلها في العصر العباسي ، تلك هي حركة الاتصال بالفلسفة اليونانية ، فقد ابتدأت في عهد الأمويين² ، ابتدأها الخليفة الأموي خالد بن يزيد ، " فإن خالد بن يزيد بن معاوية ، كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل دالة علي معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يُقال له مريانس الرومي ، وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداهما ما جري له مع مريانس المذكور ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التي أشار إليها³ .

شيوخ الجدل بين المذاهب في العصر الأموي:

لقد وُجد في العصر الأموي أيضاً أولئك الذين سُموا بالزنداقية ، الذين كانوا يبيثون بين المسلمين عقائد وآراء فاسدة ، فُصد منها هدم الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً ، وهكذا فقد فشا في العصر الأموي الجدل بين المذاهب المختلفة من خوارج ، وشيعة ، ومرجئة ، ومعتزلة وغيرهم⁴ . ويظهر تلك الفرق ظهرت العديد من المعتقدات المنحرفة والبدع ، ففي أواخر عصر التابعين – من أوائل المائة الثانية – حدثت بدعة الجهمية منكرة الصفات ، وكان أول من أظهر ذلك الجعد بن درهم ، فطلبه خالد بن عبد الله القسري ، فقتله بواسط⁽⁵⁾ (6) .

ثم ظهر بهذا المذهب الجهم بن صفوان ، ودخلت فيه بعد ذلك المعتزلة ، وهؤلاء أول من عُرف عنهم في الإسلام أنهم أثبتوا حدوث العالم بحدوث الأجسام ، وأثبتوا حدوث الأجسام بحدوث ما يستلزمها من الأعراض . ثم حدث بعد مذهب التجسيم المضاد لمذهب الاعتزال ظهور محمد بن كزّام ، زعيم فرقة الكرامية* ، وأثبت الصفات حتى انتهى فيها إلي التشبيه والتجسيم⁷ الفرق في عصر الإمام مالك:

اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية والخوارج والروافض والقرامطة والباطنية ، حتى ملأت الأرض ، ومنهم من نظر في الفلسفة ، وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره ، فلم يبقَ مصر من الأمصار ، ولا قطر من الأقطار إلا وفيه طوائف كثيرة من ذلك⁸ . وتعتبر فرقة المعتزلة من أبرز تلك الفرق ، وعلي الرغم من أنها نشأت في العصر الأموي ؛ إلا أنها شغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي رداً طويلاً من الزمن⁹ . كل هذا يدل علي أن حركة الجدل في المذاهب الدينية والآراء السياسية المصبوغة بالصبغة الدينية كانت في العصر الأموي حركة عظيمة ، وقد كان لها أثر كبير في العلم والسياسة والأدب ، وقد صدرت الفرق في هذا العصر عن عقليات مختلفة من فرس وروم وسريان وعرب وغيرهم ، وكانت هذه العقليات تؤمن بأديان مختلفة من يهودية ونصرانية ومجوسية ووثنية وغيرها .

اتصال الفرق بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي:

- 1 تاريخ المذاهب الإسلامية ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ص 387
 - 2 أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقهه ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ص 85
 - 3 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، ج 2 ، ص 224
 - 4 - فجر الإسلام ، احمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ، ص 301
 - 5 - واسط بلدة تقع بين الكوفة والبصرة . وإنما سُميت واسط لأنها متوسطة بينهما . انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ج 5 ، ص 347
 - 6 - منهاج السنة النبوية ، الإمام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ج 1 ، ص 309
 - 7 المرجع نفسه ، والجزء ، ص 310 .
 - 8 - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرزية) ، تقي الدين أحمد علي المقرزي ، تحقيق محمد زينهم ، مكتبة مدبولي – القاهرة ، ج 3 ، ص 424
 - 9 - تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 124
- * فرقة الكرامية تنسب الي محمد ابن كرام السجستاني . من الفرق المشبهة التي شبهت الخالق بال مخلوق وظهرت في العصر الأموي .

لقد كانت تلك الحركات والفرق في الدولة الأموية علي البساطة في أفكارها ، ولم تعمق تعاليمها واعتقاداتها ، ولم تصل إلي درجة القواعد المنظمة ، وإنما وصلت هذه الدرجة في صدر العصر العباسي ؛ لما أخذ خلفاء الدولة العباسية يناصرون الحركة العلمية وينهضون بالأساس الذي وضعه العلماء في الدولة الأموية . مستعينين علي ذلك بترجمة الفلسفة اليونانية ، وما وصلت إليه الأمم قبلهم¹ . وهكذا ورث العصر العباسي كل الفرق والحركات الدينية التي ظهرت في العصر الأموي ، بل وعمقت تلك الفرق مباحثها وأفكارها عندما اتصلت بمصدرين رئيسيين أولهما مصدر شرقي ذو طابع ديني ، تمثل في الديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية ، والنحل والوضعية كالصابئة والمجوسية والبرهمية ، وثانيهما مصدر غربي ذو طابع إنساني تمثل في الفلسفة اليونانية² في هذا العصر ، الذي شهد حركة جدال واسعة في المذاهب الدينية ، والآراء السياسية ، عاش أمامنا مالك بن أنس - رحمه الله - إمام دار الهجرة ، فناصر مذاهب أهل السنة والجماعة وقمع البدعة والضلالة ، فأكرم به من إمام مُقَدِّم وأستاذٍ مُعَلِّم .

عقيدة الإمام مالك رحمه الله.

الإمام مالك عالماً من أعلام الحديث وعلماً من أعلام الفقه أيضاً ، فنال الإمامة فيهما ، ولكنه عاش في عصر اضطربت فيه المنازع الفكرية ، فمن آراء منحرفة في السياسة ، إلي آراء منحرفة في العقيدة ، كالقول بأن الإنسان مجبور علي أفعاله غير مختار ، وأن مرتكب الكبيرة كافر أو أنه في منزلة بين المنزلتين (منزلتي الكفر والإيمان) ، وآخرون يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة . ثم كان أولئك الذين خاضوا في السياسة من فرق الخوارج والشيعية وغيرهما ، فكان لا بد أن يرشد إمام دار الهجرة الناس إلي ما يتبعونه في هذه המתاهات الفكرية المنحرفة عن الصراط المستقيم .

مفهوم العقيدة:

قبل أن نعرض عقيدة الإمام مالك نبين مفهوم العقيدة ، فالعقيدة في المصطلح الإسلامي هي جملة الأصول الإيمانية التي جاء بها الشرع ، ودعا الإنسان إلي الإيمان بها إيماناً يقينياً لا شك فيه. والإيمان بالله تعالى هو أصل العقيدة وعليه تُبنى الأصول الأخرى: الإيمان بالملائكة والكتب السماوية والأنبياء والرسل والقضاء والقدر واليوم الآخر . ولقد سلك الإمام مالك في هذه الأمور ما سلكه في الفقه والحديث فقد قرر أنه يجب إتباع السنة ، وإتباع منهج السلف الصالح . وسار علي السنة في دراسته للعقيدة ، فكان يدعو الناس إلي أخذ العقيدة من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم ، بدلاً من حكم العقل المجرد³ .

تعريف الإمام مالك للتوحيد والإيمان والصفات:

نبدأ أولاً في عرض عقيدة الإمام مالك بتعريفه للتوحيد ، ومذهبه في الصفات . أخرج الهروي عن الشافعي قال : سئل مالك عن الكلام والتوحيد . فقال مالك : محال أن يُظن بالنبي صلي الله عليه وسلم أنه علم أمته الاستجاء ولم يعلمهم التوحيد . والتوحيد ما قاله النبي صلي الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)⁴ . أي حتى يقرؤا بأنه لا معبود بحقٍ إلا الله . وأما عن قول مالك في الصفات ، فقد روى ابن عبد البر النمري عن مالك بن أنس - رحمه الله - في الأحاديث في الصفات أنه قال : أمروها كما جاءت ، نحو حديث التنزيل ، وحديث أن الله خلق آدم علي صورته ، وأنه يدخل قدمه في جهنم ، وما كان مثل هذه الأحاديث⁵ . وكان الإمام مالك يقول في تعريف الإيمان : إن الإيمان إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان⁶ . وعلي هذا القول ، فإن الإيمان قولٌ وعمل ، أو اعتقاد وعمل ، وأنه يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، فهذا هو مذهب السلف - رضوان الله عليهم - في تعريف الإيمان ، أو بيان حد الإيمان . وعلي هذا يتبين لك فساد ما ذهب إليه القدرية من أن الإيمان هو المعرفة بالقلب! وفساد ما ذهب إليه الكرامية من أن الإيمان

1 - فجر الإسلام ، أحمد أمين ، ص303

2 - الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، د. محمد البهي ، ص55

3 - تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص409 - 410

4 - صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ج1 ، ص51 ، حديث رقم 324

5- جامع بيان العلم وفضله ، ابن عبد البر النمري ، المكتبة التوفيقية - القاهرة ، ص 369

6 - شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، مكتبة الصفا - القاهرة ، ص 269

هو الإقرار باللسان فقط ! وهكذا يتبين لك أيضاً أن الإمام مالك واجه مذاهب شتى ، وأنه كان في دراسته للعقيدة يتبع المنقول من نصوص القرآن الكريم ، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم¹ .

مذهب الإمام مالك في مسألتي رؤية الله تعالى والقدر:

في مسألة رؤية الله عز وجل ، ذهب الإمام مالك إلى أن المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة بأبصارهم ، واستدل علي ذلك بالنصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن القرآن الكريم استدل بقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)² . حيث فسرت (الزيادة) بأنها النظر إلى الله تعالى يوم القيامة . ويقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)³ . ثم فسّر الإمام مالك قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)⁴ . فقال : إنه النظر إلى الله عز وجل⁵ . وقد أثار المعتزلة مسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة ، فأذكروها وأولوا النصوص السابقة ، التي استدل بها أهل السنة والجماعة علي رؤية الله عز وجل . واتفقوا جميعهم علي نفي رؤية الله تعالى بالأبصار ، وقالوا إنه سبحانه وتعالى يستحيل أن يُرى ، وصار أكثر المعتزلة إلي أن البارئ تعالى لا يري نفسه⁶ . ولكن الإمام مالك الذي يتبع النصوص بقرر رؤية الله تعالى ، متمسكاً بظواهر النصوص ، غير متأول لها ، ومن غير أن يتعرض لكيفيتها ، وكونها كرويتنا في الدنيا ، بل إنها علي نحو يليق بذات الله تعالى⁷ . وأما في مسألة القضاء والقدر فإن الإمام مالك كان يؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره من الله تعالى ، دون أن يخوض فيما خاض فيه القدرية والجبرية حول أفعال الإنسان ، من أنه قادر عليها أو مجبور ، وغير ذلك من الترهات والأباطيل التي قالت بها الفرق المنحرفة والضالة . وقد روي الإمام مالك في (الموطأ) من الأحاديث ما يبين هذا المعتقد . فقد بلغه أنه كان يُقال : الحمد لله الذي خلق كل شيء كما ينبغي ، الذي لا يجعل شيئاً إناه (أي أخره) وقدره ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله مرمي⁸ (أي غاية يُرمي إليها) . وقد بلغه أيضاً أنه كان يُقال : إن أحداً لن يموت حتي يستكمل رزقه ، فأجملوا في الطلب⁹ . فالمعني أن الله تعالى قد قدر الأرزاق في سابق علمه وأن كل إنسان لن يموت حتي يستوفي تلك الأرزاق قلت أو كثرت ، فما علي الإنسان إن إلا أن يتقي الله تعالى ، ويطلب تلك الأرزاق بالأوجه الشرعية ، التي بيّنها الشرع الحنيف . ثم روي الإمام مالك حديثاً فيه حكم القدرية عن عمه أبي سهيل بن مالك أنه قال : كنت أسير مع عمر بن عبد العزيز فقال : ما رأيك في هؤلاء القدرية ؟ فقلت : رأيي أن تستنبيهم فإن تابوا وإلا عرضتهم علي السيف . فقال عمر بن عبد العزيز : ذلك رأيي . قال الإمام مالك : وذلك رأيي¹⁰ . أي أن مذهب الإمام مالك ورأيه في القدرية أنهم يُستتابون ، بأن يقال لهم : أتركوا ما أنتم عليه وأنزعوا عنه¹¹ ، وإلا عرضوا علي السيف .

الإمام مالك ومسألة خلق القرآن:

وقد أثار المعتزلة في عصر الإمام مالك مسألة خلق القرآن ، ففي المائة الثانية من الهجرة امتحن المأمون الناس بخلق القرآن ، وهي أعظم الفتن في هذه الأمة ، وأولها بالنسبة إلي الدعوة إلي البدعة ، ولم يدع خليفة قبله إلي شيء من البدع¹² . وقد أثار الجعد بن درهم هذه المسألة ، ثم تلقفها عنه المعتزلة ، وقد أخذها عن رجل كان يريد إفساد العقيدة الإسلامية وهو يهودي . فقرر أن القرآن مخلوق ، وتبعه طائفة من المسلمين ، وقال غيرهم إنه غير مخلوق ، والمستعصمون علموا أن هذه فتنة تُثار بين المسلمين ؛ فأمسكوا عن الخوض فيها ، وكان من هؤلاء الإمام مالك¹³ - رحمه الله - الذي كان يقول : القرآن

1 - تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 410

2- سورة بونس ، الآية 26

3- سورة القيامة ، الآية 22 ، 23

4 - سورة المطففين ، الآية 15

5- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، الحافظ هبة الله بن الحسن اللالكائي ، دار ابن حزم - بيروت ، ص 204 وما بعدها

6 - لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ، الإمام الجويني عبد الله بن عبد الملك ، تحقيق د. فوقيه حسين ، المؤسسة المصرية

للنشر ، ص 101

7 - تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 411

8 - موطأ الإمام مالك ، كتاب القدر ، باب جامع ما جاء في أهل القدر ، ص 530

9 - الموطأ ، ص 530

10 - الموطأ ، ص 529

11 - الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ، الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري ، دار قتيبة - دمشق ، ج 26 ، ص 103

12 - تاريخ الخلفاء ، الإمام جلال الدين السيوطي ، دار المنار - القاهرة ، 397

13- تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 411

كلام الله ، وليس بمخلوق . ولقد أورد الحافظ هبة الله اللالكائي * أحاديث في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) توضح معتقد الإمام مالك وحكم من قال إن القرآن مخلوق . عن ابن أبي أويس قال : سمعت خالي مالك بن أنس وجماعة العلماء بالمدينة فذكروا القرآن فقالوا : كلام الله ، وهو منه ، وليس من الله شيء مخلوق ¹ . وعن أبي محمد يحيى بن خلف المقرئ * قال : كنت عند مالك بن أنس فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن يقول : القرآن مخلوق ؟ قال : كافر زنديق ، اقتلوه . قال : إنما أحكي كلاماً سمعته . قال : لم أسمع من أحد ، إنما سمعته منك . قال أبو محمد : فغلظ ذلك عليّ ، فقدمت مصر ، فلقيت الليث بن سعد * ، فقلت : يا أبا الحارث ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق ؟ وحكى له الكلام الذي كان عند مالك ، فقال : كافر . فلقيت ابن لهيعة * . فقلت له ما قلت لليث بن سعد ، وحكى له الكلام . فقال : كافر ² . وعن أبي همام سعيد بن البركاوي قال : سمعت أبا مصعب يقول : سمعت مالكا يقول : القرآن كلام الله وليس بمخلوق ³ . وقد بين الإمام ابن أبي العز الحنفي أيضاً مذهب أهل السنة من أهل المذاهب الأربعة في تلك المسألة ، ومن ضمن هؤلاء الفقهاء قطعاً الإمام مالك ، حيث قال : (وبالجملة فأهل السنة كلهم ، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف ، متفقون علي أن القرآن كلام الله غير مخلوق) ⁴ .

مذهب الإمام مالك في مرتكب الكبيرة:

وأخيراً نتحدث عن مذهب الإمام مالك في مرتكب الكبيرة ، حيث ثارت في العصر الذي عاش فيه ، والعصر الذي سبقه مسألة مرتكب الكبيرة ، فقال الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار ، وذهب المعتزلة إلي أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ، ليس بكافر ولا مؤمن . بينما قالت المرجئة : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ؛ ولذلك قالت المرجئة : إن مرتكب الكبيرة لا يحكم عليه بحكم في هذه الدنيا ، وإنما يرجأ أمره إلي الله تعالى يوم القيامة ⁵ . وكان رأي الإمام مالك في مرتكب الكبيرة أنه يُعذب في نار جهنم بمقدار معصيته ، وإن شاء غفر الله تعالى له ؛ لقوله - سبحانه وتعالى - (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ⁶ . ثم قال الإمام مالك في هذا المقام : إن العبد إذا ارتكب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله شيئاً ، ثم نجا من هذه الأحوال ، رجوت أن يكون في أعلى الفردوس . إن كل كبيرة بين العبد وربّه هو منها علي رجاء ، وكل هوي ليس هو علي رجاء ، إنما يهوي به في نار جهنم ⁷ . فهذه هي عقيدة الإمام مالك - رحمه الله تعالى - التي هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، فالعقيدة هي : تصديق القلب تصديقاً جازماً لا يقربه شك بأن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله . والتصديق بما جاء من عند الله تعالى ، وأما السنة فهي طريقة الرسول صلي الله عليه وسلم ، والجماعة هي جماعة المسلمين ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلي يوم الدين . فإتباعهم هدي ، وخلافهم ضلال ، قال تعالى لنبيه صلي الله عليه وسلم : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) ⁸ . إذن عقيدة أهل السنة والجماعة - كما مضى - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والإيمان باليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . وهذه الأصول خالف فيها من خالف ، وانحرف عنها من انحرف من الفرق الضالة كالدورية والجهمية والمرجئة والمشيبهة والمجسمة وغيرها من الفرق ، التي ظهرت في زمن الصحابة والتابعين ، أما المذاهب الفقهية التي ظهرت في ذلك الزمن (بعد عصر الصحابة وكبار التابعين) فينسب جميع أصحابها إلي مذهب أهل السنة والجماعة ⁹ . ومعلوم أن الأئمة الأربعة - رحمهم الله تعالى - لم يكونوا سوي علماء أعلام من علماء الأمة ، أكرمهم الله

1 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، ص 120

2- المصدر السابق نفسه ، ص 121

3 - المصدر السابق نفسه ، ص 122

4 - شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، ص 188

5- الفرق بين الفرق ، عبد الفاهر بن طاهر البغدادي ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، المكتبة التوفيقية - القاهرة ، ص 84/55

* ابوالقاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الشافعي ، عاش في بغداد ومات بها سنة 418هـ .

** ابو محمد يحيى بن خلف المقرئ البغدادي ، أحد القراء المشهورين وهو الراوي الأول لقراءة حمزة بن حبيب الكوفي .

* الليث بن سعد الفقيه المصري ، كان عالماً بالفقه قيل في الثناء عنه كان أفقه من الإمام مالك إلا ان أصحابه لم يقوموا به .

** عبد الله بن لهيعة - بفتح اللام وكسر الهاء - محدث الديار المصرية مع الليث بن سعد .

6 - سورة النساء ، الآية 48

7 - ترتيب المدارك ، ص 207

8 - سورة آل عمران ، الآية 31

9 - أدب الاختلاف في الإسلام ، د. طه جابر العلواني ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ص 87

تعالى بأمانة العلم ، والقيام بواجبه ؛ فوصلهم الله بنور المعرفة والفهم ؛ ورثوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده¹ .

قول الإمام مالك في مسألة الاستواء

يُروى عن الإمام مالك قولٌ مشهور في مسألة الاستواء ، استواء الرحمن علي عرشه ؛ وذلك عندما سأله رجلٌ عن هذه المسألة . فأبان الإمام مالك الفهم الصحيح لتلك المسألة ، كما بيّن غيرها من مسائل الاعتقاد علي مذهب أهل السنة والجماعة ، ومنهجهم في فهم النصوص . إن سوء الفهم لتلك النصوص كان مصدر انحراف للفرق الضالة ، وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم² لقد خاضت الفرق المذكورة سابقاً في المسائل الاعتقادية ، وكانت من أهمها مسألة الصفات * ؛ لأنها يتفرع عنها مسائل كالجبر والاختيار والبعث والنبوة ؛ بل وجميع العقائد الدينية ، بحيث يمكن القول : إن ما سوي عقيدة الصفات وما يتعلق بها من أحكام هو إما مقدمة لها أو فرع عنها . وبالإضافة إلي ماسبق فإن مسألة الصفات كانت محوراً لتشعب الفرق المختلفة³ . ولمثل هذه الفرق أنبيري الإمام مالك يدافع عن معتقدات أهل السنة والجماعة ، ويبين للناس المعتقد الصحيح من بين تلك المعتقدات الفاسدة . ومما أثارته تلك الفرق ، وشذت به ، اتباع ما تشابه من القرآن ، وتوغلها في التشبيه ؛ حتى وقعوا في التجسيم الصريح . ومن الآيات القرآنية التي اتخذتها المشبهة والمجسمة أساساً للتشبيه والتجسيم⁴ ، قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء)⁵ . وقوله تعالى : (الرحمن علي العرش استوي)⁶ وحجة أولئك المشبهة أنه لا يقوم في المعقول إلا جسم أو عَرَضٌ فلما بطل أن يكون الله عَرَضاً ثبت أنه جسم⁷ (تعالي الله عما يقولون علواً كبيراً) .

انتشار أقوال المشبهة ورد الإمام مالك عليهم:

ولما انتشرت أقوال المشبهة جاء رجلٌ إلي الإمام مالك ، إمام أهل السنة والجماعة ، يسأله عن الاستواء في قوله تعالي : (الرحمن علي العرش استوي) . فقال الإمام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة⁸ . وقد روي هذا القول برواية أخرى ، فعن جعفر بن عبد الله قال : جاء رجلٌ إلي مالك بن أنس . فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن علي العرش استوي) كيف استوي ؟ قال : مارأيت مالكاُ وجد من شيءٍ كموجدته من مقالته وعلاه الرخصاء - يعني العرق - قال : وأطرق القوم جعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه . قال : فسُرِّي عن مالك فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإني أخاف أن تكون ضالاً ، وأمر به فأخرج⁹ .

مذهب الإمام مالك من مذاهب السلف:

كان ذلك مذهب الإمام مالك في مسألة الاستواء الذي قرره ، وحكاه عنه العلماء ، كالإمام الحافظ ابن كثير ، حيث قال : "إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي واحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلي أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه ، وليس كمثل شيءٍ وهو السميع البصير"¹⁰ .

1 - موقف الأمة من اختلاف الأئمة ، الشيخ عطية محمد سالم ، مكتبة دار التراث - المدينة المنورة ، ص 53 * الصفات الإلهية : ما يجب لله تعالي من صفات وما يستحيل منها وما يجوز في حقه تعالي .

2 - الروح ، ابن قيم الجوزية ، دار الفكر - بيروت ، ص 65

3- قضية الصفات الإلهية وأثرها في تشعب المذاهب واختلاف الفرق ، د. حسن محرم السيد ، ص 35/33

4 - الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، د. محمد البهي ، مكتبة وهبة - القاهرة ، ص 36

5 - سورة المائدة ، الآية 64

6 - سورة طه ، الآية 5

7 - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ، مكتبة المثني - بغداد ، ج2 ، 117

8 - المنحول من تعليقات الأصول ، الإمام أبو حامد الغزالي ، تحقيق محمد حسن هيتو ، دار الفكر بيروت ، ص 250

9 - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، ص 180 . وانظر : ترتيب المدارك ، ج2 ، ص 38

10 - تفسير القرآن العظيم ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة الصفا - القاهرة ، ج3 ، ص 250

ويقول الإمام الذهبي في هذا الموضوع حاكياً مذهب السلف من الأئمة كالإمام مالك وغيره " إن إثبات الصفات والأسماء لله تعالى لا يستلزم أن يكون الخالق مماثلاً لخلقه ، ولا مُشَبَّهاً لهم ، فهو تعالى موصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته ، وهي قديمة أزلية واجبة بقدّم الموصوف ، ووجوبه ، وهذا حق لا محذور فيه . والذي عليه أهل الحق من السنة أنه تعالى لا يوصف بالجسمية أصلاً ، بل ولا في فطرة العرب جاهليتها وإسلاميتها أن الله جسم أبداً (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)¹ . وحكي أيضاً للإمام السيوطي في شرحه للموطأ ، مذهب الإمام مالك من جملة ما حكي من مذاهب السلف . فقال : " ولقد أجمع أهل السنة والجماعة علي أن العين واليد والرجلين ليست بجوارح كجوارح المخلوقين ؛ لأنه (ليس كمثل شئ وهو السميع البصير " (2) (3) . وأورد الشيخ إبراهيم الباجوري في كتابه (شرح جوهره التوحيد) قول الله تعالى : (وبقي وجه ربك ربك ذو الجلال والإكرام)⁴ . ثم بيّن مذهب السلف في هذه المسائل . فقال : " لفظه (الوجه) ظاهر معناها يفيد الجارحة ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ؛ لأن الوجه هو الذي تقع به المواجهة ، فهي لفظه ظاهرها فيه تشبيه الخالق بالمخلوق . ولقد كان موقف السلف من هذه النصوص تنزيهه الله تعالى عن الظاهر المتبادر من هذه النصوص " ⁵ وهكذا يتبين لك مذهب الإمام مالك في مسألة (الاستواء) من أن الاستواء معلوم بالكتاب والسنة ، وكيفية علي نحو يليق بجلاله - جلّ وعلا - ولا يعلم هذه الكيفية إلا الله تعالى ، ولا يدركها البشر ، والإيمان بالاستواء واجب لأنه نطق به الكتاب والسنة . وننفي عن الله تعالى التشبيه ، فإن التشبيه عقيدة مبتدعة ، دانت بها الفرق الضالة من المشبهة والمجسّمة ، التي حادت عن طريق السلف رضوان الله عليهم .

مرويات الإمام مالك في بعض مباحث العقيدة في كتابه (الموطأ)

ألّف الإمام مالك كتابه (الموطأ) ، الذي أودعه أصول الأحكام ، وتوخي فيه إيراد القوي من حديث أهل الحجاز ، كما نقل ما ثبت لديه من أقوال الصحابة وفتاوي التابعين ، ورتبه علي أبواب الفقه ⁶ ، مثل باب الطهارة ، باب وقوت الصلاة ، باب السهو ، باب الزكاة ، وغيرها . وقد أُعتبر (الموطأ) ثمرة جهد الإمام مالك لمدة أربعين سنة ، وهو أول كتاب في الحديث والفقه ظهر في الإسلام ، وقد وافقه علي ما فيه سبعون عالماً من معاصريه من علماء الحجاز ⁷ ؛ ولذلك قال الإمام الشافعي في (الموطأ) : " لا أعلم كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك " .⁸ وعلي الرغم من أن كتاب (الموطأ) هو كتاب حديث وفقه ، إلا أن الإمام مالك ضمنه بعض الأحاديث في النهي عن القول بالقدر ، وما جاء في أهل القدر ، وعقد لذلك بابين في كتابه (الموطأ) (الباب الأول : باب النهي عن القول بالقدر والثاني : باب جامع ماجاء في أهل القدر . ولعل السبب في تضمين الإمام مالك لتلك الأحاديث ، التي تتعلق بمبحث الإلهيات من العقيدة وأصول الدين هو شيوع القالة في القدر من أتباع الفرق الضالة كالقدرية والجبرية والجهمية والمعتزلة وغيرها . لقد انحرف في تفسير باب القدر طوائف عدة منهم : الطائفة الأولى : الجهمية أو الجبرية ، الذين أنكروا قدرة العبد . فقالوا : إن العبد مجبور علي أفعاله ، لا اختيار له ولا قدرة ، ولا إرادة فالعبد مثل الريشة في الهواء تحركها الرياح بغير إرادة منها ، ولا اختيار ⁹ . والطائفة الثانية هم : القدرية أو المعتزلة ، قالوا : إن الإنسان خالق لأفعاله خيرها وشرها ، وليس لله تدبير ، ولا إرادة بفعل العبد ¹⁰ . ولقد توسط أهل السنة والجماعة ، فأثبتوا للعبد قدرة واختياراً وإرادة ، ولكنها تابعة لمشيئة الله - جلّ وعلا - وقدرته وإرادته ، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإرادة الله ومشيئته ¹¹ . ولكن كما رأيت مما سبق فقد خالف في هذا الأصل طوائف كالقدرية والجبرية وغيرها ؛ فلذلك استحق هؤلاء المقْت والذم ، وأن يُقال إنهم مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم أثبتوا خالقين مع الله تعالى ، حيث قالوا

1 - المنتقى من منهاج الاعتدال ، الحافظ أحمد عثمان الذهبي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المملكة العربية السعودية ، ص 85-86
2- سورة الشورى ، الآية 11
3 - تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك ، الإمام السيوطي ، دار الفكر بيروت ، ج2 ، ص799
4 - سورة الرحمن ، الآية 27
5 - شرح جوهره التوحيد ، إبراهيم الباجوري ، ص158
6 - المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون ، ص490
7 - حجة الله البالغة ، ولي الله الدهلوي ، ص335 نقلاً عن : أدب الإختلاف في الإسلام ، ص117
8- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، الحافظ ابن كثير ، تحقيق احمد محمد شاكر ، دار التراث ، مكة ، ص 26
9 - الاقتصاد في الاعتقاد ، الإمام أبو حامد الغزالي ، دار الفكر - بيروت ، ص67 ، وانظر : شرح جوهره التوحيد ، ص244
10 - الملل والنحل ، ابو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، مكتبة الرياض الحديثة ، ص45
11 - محاضرات في العقيدة والدعوة ، صالح بن فوزان الفوزان ، ص197

: إن الإنسان يخلق فعل نفسه استقلالاً ؛ وبذلك ضلوا ؛ وبذلك استحقوا المقمت ، والذم من أهل الحق ؛ لأنهم خطوا هذا الأصل العظيم ، وهو الإيمان بالقدر¹

الأحاديث التي رواها الإمام مالك في موضوع القدر:

وفي هذا الموضوع روي الإمام مالك - رحمه الله - أحاديث في شأن القدرية ، وبيان معتقد أهل السنة والجماعة من الصحابة في شأن القدر ، وقد بلغت هذه الأحاديث عشرين . ومن هذه الأحاديث الآتي :

1- روي الإمام مالك عن زيد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أنه أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : (وإذا أخذ ريك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علي أنفسهم ألسنت بريكم قالوا بلي شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) . فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون " فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتي يموت علي عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتي يموت علي عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار " ² . قال ابن عبد البر النمري في شرحه لهذا الحديث : " وفي هذا الحديث دليلٌ علي أن الله - عز وجل - قد سبق في علمه ما يكون ، وأنه في كتاب مسطور ، جري القلم فيه بما يكون إلي آخر الأبد ، وأن العباد لا يعملون إلا فيما علمه الله عز وجل وقضي به وقدره " ³ 2- وروي الإمام مالك عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن مسلم ، عن طاوس اليماني أنه قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : " كل شئ بقدر حتي العجز والكيس أو الكيس والعجز " ⁴ قال ابن عبد البر عن هذا الحديث : (قد تواترت الآثار عن السلف الصالح بالنهاي عن الجدل فيه ، والاستسلام له ، والإيمان به) ⁵ . 3- وروي الإمام مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحتها وتتكح فإنما لها ما قدر لها " ⁶ قال ابن عبد البر في (الاستنكار) معلقاً علي هذا الحديث : " فيه إثبات القدر ، والإقرار بعدم العلم به ، بقوله صلى الله عليه وسلم : (فإنما لها ما قدر لها) " ⁷ . كانت تلك هي بعض الأحاديث التي رواها الإمام مالك في مبحث الإلهيات من علم العقيدة أو أصول الدين ، حول موضوع القدر ، الذي شاع القول فيه في عصر الصحابة ، وفي عصر الإمام مالك ؛ مما اقتضي معه رواية الأحاديث والآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ؛ لبيان معتقد أهل السنة والجماعة في موضوع القدر . وهكذا رأيت الإمام مالك يدعو الناس إلي أخذ العقيدة من النصوص ، من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهكذا رأيت أيضاً أن الإمام مالك يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، دون أن يخوض فيما خاض فيه الخائضون من الفرق الضالة كالقدرية والجهمية والجبرية وغيرها .

الأحاديث التي رواها الإمام مالك في مبحث الغيبات:

وأما في مبحث الغيبات أو السمعيات كالجنة والنار والصراف والميزان وغيرها ، فقد عقد الإمام مالك كتاباً في (موطأه) سماه (كتاب جهنم) . وأورد فيه باباً واحداً . ثم روي الحديثين الآتيين :

1- عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نار بني آدم التي يوقدون جزءً من سبعين جزءاً من نار جهنم) . فقالوا يا رسول الله إن كانت لكافية قال : (إنها فضلٌ عليها بتسعة وستين

1 - محاضرات في العقيدة والدعوة ، ص 198

2- الموطأ ، الإمام مالك ، كتاب القدر ، باب النهي عن القول بالقدر ، ص 528

3- الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ، ابن عبد البر ، ج 26 ، ص 85

4 - الموطأ ، ص 529

5 - الاستنكار ، ج 26 ، ص 100

6 الموطأ ، باب جامع ماجاء في أهل القدر ، ص 529

7 - الاستنكار ، ج 26 ، ص 105

جزءاً¹ 2- وعن مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أنه قال - في صفة نار جهنم - : أترونها حمراء كناركم هذه ؟ لهي أسود من القار . والقار الزُّفْتُ² قال ابن عبد البر معلقاً علي الحديث الأول : " ليس في هذا الحديث ما يحتاج إلي القول ؛ وفيه إباحة الخبر عن القيامة والآخرة ، وحال النار - أجازنا الله منها وزحزحنا عنها - وفيما نطق به القرآن من الخبر عن الآخرة والجنة والنار ما فيه معتبر لأولي الأبصار " .³

آثار الإمام مالك العلمية في العقيدة وأصول الدين

ألف الإمام مالك - رحمه الله - مؤلفات كثيرة غير كتابه (الموطأ) مروية عنه . أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فن من العلم ، لكنها لم تشتهر كما اشتهر (الموطأ) ، ولم يواظب الإمام مالك علي إسماعها وروايتها⁴ . ومن تلك العلوم التي صنف فيها الإمام مالك ، وناصر فيها معتقد السلف ، وردَّ فيها علي الفرق المنحرفة والضالة ، علم العقيدة أو علم أصول الدين . ومما أثر عن الإمام مالك في ذلك رسالة إلي ابن وهب ، عبد الله أبي محمد بن وهب بن مسلم القرشي ، الذي صحب مالكاً عشرين سنة يُسمى (ديوان العلم) ، وسماها بعضهم برسالة الإمام مالك في القدر والرد علي القدرية⁵ . قال ابن فرحون المالكي : هو من أشهرها في الباب ، ومن خيار الكتب المتداولة في القدر والرد علي القدرية . وكذا مدحه القاضي عياض ، وقال : هو من خيار الكتب في هذا الباب ، الدال علي سعة علمه - أي الإمام مالك - بهذا الشأن⁶ . يقول القاضي عياض في هذا الموضوع : " وسائر تأليفه - أي الإمام مالك - إنما رواها عنه من كتب بها إليه ، أو سأله إياها أحد من أصحابه ، ولم تروها الكافة ، فمن أشهرها رسالته إلي ابن وهب في القدر والرد علي القدرية ، وهو من خيار الكتب في هذا الباب"⁷ . يتضح من هذا الكلام أن تأليف الإمام مالك في العلوم الأخرى لم يروها الكافة ، أي لم يروها عددٌ كبير من تلاميذه ، أو ممن سمعها منه ؛ ولذلك تجد أقوال الإمام مالك متناثرة هنا وهناك ، في كتب العلماء ، مروية بأسانيد المتصلة إلي الإمام مالك - رحمه الله .

موقف الإمام مالك من علم الكلام

لقد شهدت الدولة الاموية ظهور علم الكلام ، فقد نشأ هذا العلم نتيجة للصراع الفكري بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ؛ ذلك أن الإسلام قد انتشر في أقطار حافلة بثني الديانات كاليهودية والنصرانية والمزدكية * ونحو ذلك⁸ . ولقد أثار أصحاب تلك الديانات بعض الشبهات حول الإسلام عقيدة وشريعة ، وحول نبي الإسلام محمد صلي الله عليه وسلم ، فقام بعض علماء المسلمين يدافعون عن العقائد الإسلامية ، مستخدمين الأدلة العقلية والمنطق والفلسفة ؛ وذلك أن هذه الديانات قد اصطبغت صبغة فلسفية ، وتأثرت بالمنطق والفلسفة اليونانية ، فلم يكن بدّ من منازلتهم بسلاح الفلسفة والمنطق ومن هنا نشأ علم الكلام وكان هدفه الدفاع عن العقائد الإسلامية ، لا تقرير وتدريس العقيدة كما فعل المعتزلة ، الذين أدخلوا في قضايا الدين أشياء خالفت ما كان يعتقد الصواب والتابعون وجمهور الأمة ، وكانت عناوين كتبهم تحت لفظ علم الكلام ؛ لذلك وقع عليهم الذم من الفقهاء والمحدثين كالإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل - رحمهم الله - وغيرهم . وسوف نبين موقف الإمام مالك من علم الكلام في المطلب التالي ، إن شاء الله تعالى .

تعريف علم الكلام : عُرّف علم الكلام بتعريفات عدة ، تظهر هذه التعريفات أن الوظيفة الأساسية لهذا العلم هي الدفاع عن عقائد الإسلام . وإليك فيما يلي بعضاً من هذه التعريفات :

- 1- الموطأ ، كتاب جهنم ، باب صفة جهنم ، ص 571
- 2 - المرجع السابق نفسه ، ص 572
- 3 - التمهيد لما جاء في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ابن عبد البر النمري ، تحقيق أسامة بن إبراهيم ، دار الفاروق - القاهرة ، ج 16 ، ص 433
- 4 - الإمام مالك ومكانة كتابه الموطأ ، د. تقي الدين الندوي المظاهري ، وزارة الثقافة والإعلام - الإمارات العربية المتحدة ، ص 91
- 5- * المزدكية : نسبة إلي مزدك الفارسي المولود عام 487هـ قال عنه الشهرستاني : أحل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركاء في ذلك . الشهرستاني (الملل والنحل - 86)
- 1- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ابن فرحون المالكي ، نقلاً عن : الإمام مالك ومكانة كتابه الموطأ ، ص 92
- 6- ترتيب المدارك ، القاضي عياض ، ج 2 ، ص 91
- 7 - ترتيب المدارك ، ج 2 ، ص 91
- 8 - في علم الكلام ، د. أحمد محمود صبحي ، دار النهضة العربية - بيروت ، ص 29

- 1- التعريف الأول: تعريف الجرجاني ، حيث إنه عرف علم الكلام بموضوعه فقال : (علم الكلام علم باحث عن الأعراض الذاتية للموجود من حيث هو قاعدة الإسلام)¹ .
 - 2- التعريف الثاني: تعريف الفارابي ، الذي ذهب إلي أن علم الكلام : (ملكة يقتدر بها الإنسان علي نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزيف كل ما خالفها بالأقويل)²
 - 3- التعريف الثالث: تعريف عضد الدين الإيجي ، صاحب كتاب (المواقف في علم الكلام) ، حيث يعرف علم الكلام بأنه : (علم يقتدر معه علي إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه)³
 - 4- التعريف الرابع: تعريف العلامة ابن خلدون ، حيث عرف علم الكلام بأنه : " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد علي المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة " ⁴ . إذا طالعنا هذه التعريفات ، نجد أن أصحابها قد عرفوا علم الكلام بوظيفته ، حيث تتفق هذه التعريفات في أن وظيفة علم الكلام هي الدفاع عن معتقدات السلف بواسطة الأدلة العقلية وإبطال عقائد المنحرفين والمبتدعة ، ودفع الشبه التي تُثار حول الإسلام .
- موضوع علم الكلام :** هو ذات الله تعالي ، وصفاته وفعاله في الدنيا كحدوث العالم ، وفي الآخرة كالحشر ، وأحكامه فيها كبعث الرسل ، والثواب والعقاب ⁵ . والبحث عن الجواهر والأعراض ، والمراد بالجواهر الماهيات ، وهي تنحصر في خمسة: الهيولي والصورة ، والجسم ، والنفس ، والعقل . وأما الأعراض فهي الموجودات التي تحتاج في وجودها إلي موضع ، أي محل تقوم به كاللون ، الذي يحتاج في وجوده إلي جسم يقوم به ⁶ . وقيل في موضوع علم الكلام الموجود من حيث هو موجود ⁷ ، فعلماء الكلام يقسمون الوجود إلي قسمين : واجب الوجود ، وممكن الوجود ، ويستدلون بممكن الوجود ، الذي يتكون من جواهر وأعراض علي واجب الوجود . وقيل أيضاً أن علم الكلام موضوعه : المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً ، والمقصود (بالعقائد الدينية) المنسوبة إلي دين الإسلام ⁸ .

موقف الإمام مالك من علم الكلام

لم يكن علم الكلام مقبولاً عند أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين ، بل كان مكروهاً ومنهياً عنه ، فمثلاً موقف الأئمة الأربعة : مالك ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، واحمد بن حنبل - رحمهم الله - مشهور في النهي عن الكلام والخوض فيه . والسبب في نهى هؤلاء الأئمة عن الخوض فيه ؛ أن علم الكلام يشتمل علي أمور مخالفة للحق الذي ورد في الكتاب والسنة ، ولهذا لا نجد عند الذين يتعاطون علم الكلام من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلاً عن علمائهم ⁹ . ولقد أورد القاضي عياض في كتابه (ترتيب المدارك) ، وابن عبد البر النمري في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) كثيراً من الروايات عن الإمام مالك - رحمه الله - تبين موقفه من علم الكلام ، وأهل الأهواء والبدع ، وكيف أن الإمام مالك نَهَى علم الكلام والجدل والمراء .

روايات عن الإمام مالك تبين موقفه من علم الكلام:

- 1- قال مصعب بن عبد الله الزبيري : كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ؟ ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي ؛ لأنني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل ¹⁰ . ومراد الإمام مالك من هذا القول أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده ، وعند أهل بلده يعني العلماء منهم رضي الله عنهم وأخبر أن الكلام في

1 - التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ص 128
2 - إحصاء العلوم ، أبو نصر الفارابي ، تحقيق د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص 131
3 - المواقف في علم الكلام ، عضد الدين الإيجي ، عالم الكتب بيروت ، ص 7 . وانظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد علي التهانوي ، دار الفكر - بيروت ج1 ، ص 22
4 - مقدمة ابن خلدون ، ص 507
5 - المواقف في علم الكلام ، ص 7
6 - التعريفات ، الجرجاني ، ص 122/70
7 - المواقف في علم الكلام ، ص 8
8 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، دار الفكر بيروت ، ج2 ، ص 1503
9 - شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، مكتبة الصفا - القاهرة ، ص 26
10 - جامع بيان العلم وفضله ، ص 367

الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه وضرب مثلاً فقال : (نحو قول جهم في القدر) والذي قاله مالك - رحمه الله - قاله جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوي ، وإنما خالف ذلك أهل البدع المعتزلة وسائر الفرق ، وأما الجماعة فعلي ما قال مالك رحمه الله ، إلا أن يضطر أحد إلي الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل ، وصرف صاحبه عن مذهبه ، أو خشى ضلالة عامة أو نحو هذا¹ .

2- ورواية اخري أوردها ابن عبد البر عن الإمام مالك في معني الرواية الأولى من أن أهل المدينة يحبون الحديث عن الفقه والسنن ، فعن مالك أنه بلغه عن قاسم بن محمد قال : أدركت الناس وما يعجبهم القول ، إنما يعجبهم العمل² .

3- وفي رواية أخري يبين الإمام مالك أثر المرء في الدين علي القلب ، حيث قال : المرء والجدال في العلم يذهب نور العلم من قلب العبد . وقال : إنه يقسي القلب ويورث الضغن . قال الزهري : رأيت مالكا وقوماً يتجادلون عنده . فقام مالك ونفض رداءه وقال : إنما أنتم حرب . قال الهيثم بن جميل : قيل لمالك : الرجل له علم بالسنة يجادل عنها ؟ قال : لا . ولكن يخبر بالسنة فإن قيل منه والإسكت³ . وقال أبو طالب المكي : كان مالك أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين ، وأشدهم بغضاً للعراقيين وألزمهم لسنة السابقين من الصحابة والتابعين .

وكان مالك كثيراً ما يتمثل : وخير أمور الدنيا ما كان سنة * * وشر الأمور المحدثات البدائع⁴
4- وفي الرواية التالية ينهي الإمام مالك عن مجالسة أهل البدع ، وأخذ العلم عنهم . قال الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - : لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه معطن السفه ، وصاحب هوي يدعو إليه ، ورجل معروف بالكذب في أحاديث الناس ، وإن كان لا يكذب علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ورجل له فضل وصلاح ولا يعرف ما يحدث به⁵ .

5- قال ابو عبد الله محمد بن احمد بن اسحق بن خويز منداد المصري المالكي في كتاب (الإجازات) . قال مالك : لا تجوز الإجازات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم . وذكر كتباً . ثم قال : وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وتفسخ الإجازة في ذلك . وقال في كتاب (الشهادات) في تأويل قول مالك : لا تجوز شهادة أهل البدع ، وأهل الأهواء⁶ . وهكذا يتضح لنا موقف الإمام مالك - رحمه الله - من علم الكلام من خلال الروايات التي ذكرناها آنفاً ، من أنه كان ينهي عن الكلام والخوض فيه ، وينهي كذلك عن مجالسة أهل الأهواء والبدع وأخذ العلم عنهم ، بل ورد شهادتهم ونحو ذلك . ثم إن الإمام مالك كان يحب الكلام فيما تحته عمل من الفقه والسنة . وفقنا الله وإياكم إلي العمل بالكتاب والسنة ، والتمسك بهما وبسنة الخلفاء الراشدين المهديين .

النتائج:

- 1- إن الحديث الذي رواه الترمذي : (يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة) المقصود به الإمام مالك ؛ مما يدل علي مكانته ، ورسوخ قدمه في العلم
- 2- سار الإمام مالك في دراسته للعقيدة علي الكتاب والسنة ، فكان يدعو الناس إلي أخذ العقيدة منهما .
- 3- عقد الإمام مالك بابين في كتابه (الموطأ) في الحديث عن مسألة القدر ؛ مما يدل علي شيوع القالة في القدر ، وأن الإمام مالك قد تصدى للفرق الضالة كالفردية ، والجبرية ، والجهمية ، والرافضة وغيرها .
- 4- إن موقف الإمام مالك من علم الكلام هو النهي عن الخوض فيه ، وكان يكره المرء والجدال في الدين .
- 5- إن الإمام مالك له مؤلفات غير (الموطأ) ، فله كتب في العقيدة وأصول الدين .

التوصيات :

- 1- الاستمرار في إقامة مثل هذه المؤتمرات من قبل المؤسسات الأكاديمية

1 - جامع بيان العلم وفضله ، ص368
2 - المرجع نفسه ، ص 257
3 - ترتيب المدارك ، ج2 ، ص 38
4 - المرجع السابق ، ج2 ، ص39
5 - جامع بيان العلم وفضله ، ص 310
6 - جامع بيان العلم وفضله ، ص 369

2- إنشاء جمعيات تحمل مسمى (جمعية الإمام مالك العلمية) في المدن والقري ، تقوم بعقد الدروس والمحاضرات والندوات عن المذهب المالكي .

3- تخصيص جائزة باسم الإمام مالك تُمنح للباحثين في مسابقة للكتابة حول شخصية الإمام مالك ومذهبه الفقهي ، ومذهبه في العقيدة وأصول الدين.

المصادر والمراجع:

- 1- أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه وفقه ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي – القاهرة
- 2- إحصاء العلوم ، أبو نصر الفارابي ، تحقيق د. عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو المصرية
- 3- أدب الاختلاف في الإسلام ، د. طه جابر العلواني ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- 4- الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار ، ابن عبد البر النمري ، دار قتيبة – دمشق .
- 5- الاقتصاد في الاعتقاد ، الإمام أبو حامد الغزالي ، دار الفكر – بيروت
- 6- الإمام مالك ومكانة كتابه الموطأ ، د. تقي الدين الندوي المظاهري ، وزارة الثقافة والإعلام – دولة الإمارات العربية المتحدة .
- 7- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، الحافظ بن كثير ، تحقيق احمد محمد شاکر ، دار التراث – مكة المكرمة .
- 8- التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، دار الكتاب العربي – بيروت
- 9- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ابن عبد البر النمري ، تحقيق أسامة إبراهيم ، دار الفاروق – القاهرة .
- 10- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي ، د. محمد البهي ، مكتبة وهبة – القاهرة
- 11- الروح ، ابن قيم الجوزية ، دار الفكر – بيروت
- 12- الفرق بين الفرق ، عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، المكتبة التوفيقية – القاهرة
- 13- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم ، مكتبة المثنى – بغداد
- 14- الفهرست ، أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم ، دار الكتب العلمية بيروت
- 15- المنتقى من منهاج الإعتدال ، الحافظ الذهبي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المملكة العربية السعودية
- 16- المنحول من تعليقات الأصول ، الإمام الغزالي ، تحقيق محمد حسن هيتو ، دار الفكر – بيروت
- 17- المقدمة ، عبد الرحمن بن خلدون
- 18- الملل والنحل ، أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق عبدالعزيز الوكيل ، مكتبة الرياض الحديثة
- 19- المواقف في علم الكلام ، عضد الدين الإيجي ، عالم الكتب – بيروت
- 20- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقرئية) ، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ ، تحقيق محمد زينهم ، مكتبة مدبولي – القاهرة .
- 21- الموطأ ، الإمام مالك بن أنس
- 22- تاريخ الخلفاء ، الإمام جلال الدين السيوطي ، دار المنار – القاهرة
- 23- تاريخ المذاهب الإسلامية ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي – القاهرة
- 24- ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، القاضي عياض بن موسى الجصبي .
- 25- تفسير القرآن العظيم ، الحافظ بن كثير ، مكتبة الصفا – القاهرة
- 26- تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك ، الإمام جلال الدين الأسيوطي – دار الفكر – بيروت
- 27- عقيدة المسلم ، الشيخ محمد الغزالي ، دار الدعوة – الإسكندرية
- 28- فجر الإسلام ، أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة
- 29- في علم الكلام ، د. أحمد محمود صبحي ، دار النهضة العربية – بيروت
- 30- قضية الصفات الإلهية وأثرها في تشعب المذاهب واختلاف الفرق ، د. حسن محرم السيد
- 31- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، الحافظ هبة الله بن الحسن اللالكاني ، دار ابن حزم – بيروت
- 32- شرح العقيدة الطحاوية ، ابن أبي العز الحنفي ، مكتبة الصفا – القاهرة
- 33- شرح جوهره التوحيد ، الشيخ إبراهيم الباجوري
- 34- كشاف اصطلاحات الفنون ، محمد علي التهانوي ، دار الفكر - بيروت
- 35- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، دار الفكر – بيروت
- 36- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ، الإمام الجويني عبد الله بن عبد الملك ، تحقيق د. فوقيه حسين ، المؤسسة المصرية للنشر
- 37- محاضرات في العقيدة والدعوة ، صالح بن فوزان الفوزان ، دار العاصمة – الرياض
- 38- معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت
- 39- منهاج السنة النبوية ، الإمام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية القاهرة
- 40- موقف الأمة من اختلاف الأئمة ، الشيخ عطية محمد سالم ، مكتبة دار التراث – المدينة المنورة
- 41- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس أحمد بن محمد بن خلکان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر – بيروت .